

المقاربة التاريخية في كتاب "الشعر الديني الجزائري الحديث" لعبد الله خليفة ركيبي

The historical approach in the book "Modern Algerian Religious Poetry"
by Abdallah Khalifa Rkibi

د. فكرونى أحمد* - Ahmed Fekrouni

جامعة جيلالي ليابس- سيدي بلعباس (الجزائر)

ahmedfekrouni242@gmail.com

تاريخ النشر: 2026/06/07

تاريخ القبول: 2026/01/21

تاريخ الاستلام: 2025/11/11

ملخص:

عبد الله خليفة ركيبي واحد من أبرز النقاد الجزائريين في العصر الحديث الذين تخصصوا في دراسة الأدب الجزائري شعره ونثره، قديمه وحديثه. وكتابه "الشعر الديني الجزائري في العصر الحديث" مصنف مميّز في الحقل الذي أسلفنا ذكره. وذلك لما تناوله من مواضيع ذات الطابع الديني، وقضايا مرتبطة بالجانب الفني، وقضايا تاريخية عديدة، بدءا من تقييد دراسته بالفترة بين سنتي 1871م و1931م. وتركيزه على المقدمات التاريخية عند تناوله لمختلف الأشعار الدينية الجزائرية، وكذلك حرصه على النهل من المخطوطات والدوريات والشعر الشعبي. بالإضافة إلى ذلك استحضاره لعدد كبير من الشعراء والشخصيات والتراجم، والأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية.

الكلمات المفتاحية: الشعر الجزائري؛ الديني؛ الصوفي؛ الإصلاح؛ القيمة التاريخية.

Abstract:

Abdullah Khalifa Rikibi is one of the most prominent Algerian critics in the modern era who specialized in the study of Algerian literature, poetry and prose, ancient and modern. His book, "Algerian religious poetry in the modern era", is distinguished in the field mentioned above. This is because of the religious nature, issues related to the artistic side, and many historical issues, starting with the restriction of his studies between 1871 and 1931. His focus is on historical introductions when dealing with various Algerian religious poems, as well as his eagerness to draw on manuscripts, periodicals and popular poetry. In addition to this he evoked a large number of poets, characters, translations, and political, social, and cultural events.

Keywords: Algerian poetry; religious; Sufi; reformist; Historical value.

1. مقدمة:

الكتابة النقدية في (الشعر الديني الجزائري الحديث) لعبد الله خليفة ركيبي¹ كتابة حمّالة ومحيلة، فهي لا تقف عند الحدود الضيقة لجغرافية النص متعاملة معه تعاملًا مستقلاً دون استحضار أية اعتبارات أو ظروف، لأنه تعتقد أن العمل الأدبي ليس وليد الصدفة ولا وليد نفسه، وليس مولوداً غير شرعي لا هوية له ولا مرجعية؛ إنما هو كائن حي فاعل ومنفعل، ومنجز تسهم في تحلقه ملابسات مختلفة وبنسب متفاوتة، تؤثر فيه وتصيغه وتوجّهه، كما سيؤثر فيها هو لاحقاً سطحاً وعمقاً. فتأثير الظروف التاريخية بمختلف مظاهرها المتداخلة في الكتابة أمر معلوم ومنطقي، والاستدلال في هذا الشأن مجرد حشو ولغو، فهي أمر بالغ، إنها مسألة لا ينبغي الاستهانة بها، فبمعرفة واصطحابها تنفتح لنا عدة آفاق من رحاب النص الواسعة، وتضيئ ضفافاً جمّة من جهات الشكل والمضمون والمقصدية .

لذلك نجد عبدالله خليفة ركيبي وإيماناً منه بهذه الرؤية الواسعة المشروعة يستحضر الجانب التاريخي في بعض المواطن من دراسته، مضافاً إليه الجانب الموضوعاتي، والفني، يتمثل الحضور ذو الطابع التاريخي في دراسته فيما يلي:

- تقييده الزمني لبحثه بتاريخين سياسيين وطنيين بارزين، بحيث يتدأ من سنة 1871م، وينتهي بسنة 1931م .
- وضعه بين يدي المتلقي توطئات تاريخية موثقة (سياسية واجتماعية وثقافية ودينية)، يقسمها إلى ثلاث فترات كل واحدة منها تتميز عن الأخرى بظروفها وأحداثها وأعلامها وملابساتها.
- التركيز في جمع المعلومات والنصوص على الدوريات الجزائرية.
- عدم الاكتفاء بالمصادر والمراجع المطبوعة المتداولة، إذ تجاوز ذلك إلى الاستعانة بالمخطوطات الصغيرة والكبيرة .
- عدم التركيز فقط على الشعر الفصيح، وإنما كان الالتفات كذلك إلى الشعر الشعبي في جانبه الديني بمختلف مواضيعه وصوره .

لهذه الأسباب الموضوعية اتجهنا في دراستنا القصيرة هذه إلى متابعة المقاربة التاريخية المتعددة في كتاب (الشعر الديني الجزائري الحديث)، مع العلم أن هذه المقاربة تشترك مع مثيلاتها الموضوعاتية والفنية لتشكّل نسيجاً موحّداً، لا يمكن تجزئته في العالم الواقعي للدراسة الشاملة المتداخلة، وفي فضاء التدقيق للنصوص الشعرية، والتلقي لمصاحباتها النقدية التحليلية، لكن طبيعة الدراسة الوصفية القائمة على التفسير والتفكيك للمتن الشعري والنقدي تجيز تحليل العناصر منفردة عن بعضها البعض وتناولها استقراء واستنتاجاً، مع الاستحضار المستمر أن هذا الجزء من النص الأدبي أو من المتن النقدي ليس قائماً بذاته لوحده، بل هو فصل من منظومة متناسقة متفاعلة بينها أفقياً وعمودياً .

من هنا كان طرح الأسئلة التالية أمراً مهماً:

- لماذا استهلّ الناقد دراسته بعام 1871م، وختمها بعام 1930م؟ وما هي التبريرات الموضوعية التي قدّمها للقارئ في هذا الشأن التاريخي المتعدّد؟
- ما طبيعة المداخل التاريخية المتكوّنة من ثلاث مراحل؟ وما صلتها بالدراسة التي أنشأها الدارس حول للشعر الديني الجزائري الحديث؟
- ما قيمة الاهتمام إلى الجرائد والمجلات الجزائرية والعربية، والتعويل عليها في التوثيق التاريخي والنقدي للشعر الجزائري الحديث؟
- لماذا لم يكتف الباحث بالمصادر والمراجع المطبوعة التي جمعها لإنجاز بحثه؟ وما هي الأبعاد التاريخية والعلمية للمخطوطات التي نهل منها المعلومات والنصوص الشعرية؟
- هل من وراء استحضار الشعر الشعبي في إطار الشعر الديني الجزائري الحديث من غايات تكشف عن مساحات تاريخية في أبعادها الثقافية والأدبية؟ هذه الأسئلة التي تشكل مجموعة الإشكاليات التي يبنى عليها مقالنا، سنجتهد للإجابة عنها من خلال أربعة محاور، نستهلّها بالأول.

2. الفترة الزمنية المتعلقة بالدراسة:

يؤكد عبد الله خليفة ركيبي في مقدمة كتابه (الشعر الديني الجزائري الحديث) أنه جعل سنة 1871م بداية لبحثه، لأنها مثلت نهاية المد الثوري الذي ميّز العصور السابقة، وبفشلها بدأت مرحلة في حياة الشعب اتسمت بالهدوء النسبي. ومع ذلك، لم يتوقف الشعر، بل توجه نحو الدين والتصوّف، سواء في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، أو التعبير عن الغزل في الذات الإلهية، أو التطرق إلى مختلف موضوعات الدين²، البداية من هذا التاريخ ذات طابع سياسي خالص، إنه يمثل نهاية وبداية؛ نهاية لسلسلة من المقاومات العسكرية والشعبية، بدءاً من الأمير عبد القادر التي لم يكتب لها النصر الكامل، وبداية لمرحلة تميزت بالفراغ والصمت في نواح كثيرة، لكن ذلك لا يعني الشلل التام لكل نشاطات الإنسان الجزائري، إذ بقي الشعراء مستمرين في نظمهم للفن الشعري لكن في الاتجاه الديني بمختلف أوجهه وقضاياه. وهذا الصمت الذي قبع على الشعب الجزائري أكّده الدارس صالح خرفي ومحمد ناصر وآخرون.

أما نهاية البحث فقد حدّدها بنهاية 1930 م فهي مناسبة مرور قرن على احتلال الجزائر لأنها شكلت فاصلاً حدد مسار القوى الوطنية بمختلف توجهاتها السياسية والفكرية، وبرز التحدي الصريح للاستعمار، وتنوعت أساليب هذه القوى لمقاومة الاحتلال الأجنبي. وبما أن الشعر الجزائري تأثر بعوامل أخرى إلى جانب الدين، فقد تناولها باحثون آخرون في دراساتهم وأبحاثهم³، فتلك السنة وما أعقبها من تحولات كبرى بخاصة في الجوانب الفكرية والإصلاحية والسياسية تعد نهاية للمرحلة التي سبقتها. لكن هذه التحولات الكبرى سبقتها جهود نوعية، هي التي بادرت ومهّدت السبيل منذ أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وعقب الحرب العالمية الأولى، بفضل كوكبة من العلماء والمفكرين، كان من أعلامها المثقفين البارزين: عمر بن قدور، عمر راسم، سعد الدين بن الخمار، المولود بن

الموهوب، الطاهر بن عبد السلام، عبد الحليم بن سماية، محمد بن مصطفى بن الخوجة، المولود الزرربي، الأمير خالد، وابن أبي شنب⁴.

هكذا نلاحظ مما سبق أن العنصر السياسي كان له التأثير البارز في توجيه الفكر والثقافة والأدب، وقد أقرّ العديد من الناقدين بأهمية وحساسية الحدث السياسي من خلال التصريح بذلك في عناوين ومقدمات دراساتهم، إذ حصروا دراساتهم بتاريخين سياسيين بارزين؛ وفي هذا السياق نذكر:

- الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية (1925 . 1975) لمحمد ناصر.
- أدب المقاومة الوطنية في الجزائر، رصد لصور المقاومة في الشعر الجزائري، الجزء الأول (1830م . 1962م) لعبد الملك مرتاض .
- تطور الشعر الجزائري (1945م . 1980م) للوناس شعباني .
- أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث، من جزأين (1925م . 1976م) لمحمد ناصر بوحجام .
- الرمز والدلالة في شعر المغرب العربي (فترة الاستقلال)، أي ابتداء من 1962م لعثمان حشلاف .
- شعر المقاومة الجزائرية لصالح خرفي. صرّح المؤلف في مقدمة كتابه بالظروف الزمنية التي يشغل فيها البحث (1830م . 1930م).
- الشعر الجزائري الحديث لصالح خرفي. صرّح المؤلف كذلك في مقدمة الكتاب بالمدّة الزمنية التي يبحث فيها (1930م . 1962م) .

الفترة الزمنية التي ارتضاها عبد الله خليفة ركيبي لدراسته النقدية تمثل فترة استثنائية في تاريخ الشعر الجزائري الحديث ((تمتاز بطابع عام اصطبع فيه الشعر بالصبغة الدينية، فأصبح فيها الشعر الديني هو النافذة الوحيدة التي بقيت للأدب العربي في الجزائر يتنفس منها . فالشاعر حين أحسّ بالضيق على حريته وحرية شعبه انكفأ على نفسه يجتر أحزانه ويصوغها في قصائد دينية يرثي بها واقعه أو عصره، أو أنه من خلال الدين كان يحث الشعب على المقاومة والنهوض . وقد انعكس هذا كله في قصائد الشعراء شكلا ومضمونا))⁵ ؛ ومما سلف يبين عبد الله خليفة ركيبي أن الفترة الزمنية الممتدة ما بين 1871م و1930م غمرها تيار شعري شديد الارتباط بالدين، منه ما كان هروبا من الواقع العسير، ومنه ما كان تقليدا وتظاهرا، ومنه ما كان استجابة لطبيعة المكان الديني أو الثقافي المُنتمى إليه (المسجد، الزاوية، النادي)، ومنه ما كان وسيلة لتحقيق المنافع والمصالح، ومنه ما كان تعبيرا صادقا عن تجارب شعورية وروحية أملاها الحب والإيمان والغيرة والشكر. لكن ما ينبغي التنبيه إليه أن هذا الشعر الديني ارتبط في العقدين الأول والثاني بالفكر الإصلاحية بما يمثله من مبادئ رحبة وقيم خصبة ظلت المعين المتدفق الذي يرتوي منه العلماء والمفكرون والشعراء والسياسيون.

وبكل إنصاف وموضوعية يقرر الناقد حقيقة تاريخية أدبية فحواها أن الشعراء الذين اتجهوا إلى الاتجاه الديني صنفان ، الأول يمثله الشاعر الرسمي هو ذلك الذي يلتزم بإنشاد القصائد العربية الفصيحة، سواء للتعبير عن مشاعره ونوازه الروحية الشخصية، أو لتمجيد الجماعة التي ينتمي إليها ومواقفها واتجاهاتها، سواء كانت متصوفة

أو إصلاحية. بعض هؤلاء الشعراء ارتبطوا بالزوايا الدينية التي لجأ إليها الناس، بينما ارتبط آخرون بالفكر الإصلاحي الذي تحدى الزوايا والمفاهيم الدينية التقليدية الجامدة. وقد استمر الصراع بين هذين الاتجاهين لفترة طويلة، مسيطراً على المشهد الأدبي، وممهداً الطريق لتاريخ الأدب الجزائري الحديث لفترة زمنية طويلة⁶، وهذا الصنف بدوره قسمان، الأول كانت مرجعيته ومقصديته الزاوية وما تعلق بها من إرث قديم. والثاني منطلقاته ومشاريعه وأهدافه مستقاة من الفكر الإصلاحي الذي بزغ فجره مع نهايات القرن التاسع عشر، وتسربت إشعاعاته مع زيارة الشيخ محمد عبده للجزائر سنة 1903م، وبالنظر إلى التضارب في الرؤية والتصورات، وفي الأعمال والممارسات، وفي التعامل مع الواقع والاستشراف للمستقبل، نشأ بينهما خصومات ومعارك في العديد من نواحي العقيدة والعبادات والمعاملات والفكر والأدب، تجلّت في الزوايا والمساجد والصحف⁷، لا تزال أسبابها وآثارها حاضرة تتجلى في الأشخاص تارة، وفي الآثار المكتوبة تارة أخرى، وفي الأتباع والمناصرين .

الصنف الثاني من الحراك الشعري الذي كان سائدا آنذاك، كان الشاعر الشعبي صوت الأمة ولسان وجدانها، عبّر عن آمال الشعب وآلامه، وصاغ في شعره نبض الحياة اليومية ومثلها العليا، فسّد بذلك الفراغ الأدبي والروحي الذي كان يعتري الناس. وقد تنوعت أساليب التعبير في الشعر الملحون، فشملت القصيدة والغناء والسيرة والحكاية الشعبية، يرويها الشاعر في ليالي السمر أو يصدح بها في الأسواق والمحافل، يسترزق بها تارة، ويبحث الحماسة في النفوس تارة أخرى، مذكّراً الناس بماضيهم العريق ومكارم أسلافهم، وواعظاً إياهم في الدين والأخلاق. وهكذا أسهم الشعر الفصيح والملحون معاً في إبقاء الشعلة الأدبية حيّة في الجزائر، وحافظا على سلامة اللغة العربية واستمرارها رغم ما اعترضها من ظروف عسيرة مست جوهرها وثقافتها القومية⁸. وهذا الدور المتعدد الوظائف الذي أدّاه الشعر الملحون في هذه الفترة جسّد فيه الروح الدينية والقومية والوطنية، ودوّن فيه العديد من الأحداث التي عاشتها الجزائر والأمة الإسلامية والعربية، وكشف ممارسات الاستعمار الفرنسي، وأظهر بطولات الأجداد والأحفاد .

3. المدخل التاريخي:

قبل أن يشرع الناقد في دراسته النقدية القائمة على الوصف والتحليل مهّد لها بمدخل تاريخي عام قسمه إلى ثلاث مراحل . الأولى تبدأ من الغزو الفرنسي عام 1830 م إلى غاية ثورة المقراني عام 1871م. والثانية من تاريخ ثورة المقراني إلى نهاية القرن العشرين، أما المرحلة الأخيرة فمن نهاية التاريخ السالف إلى مشارف سنة 1930م .

المرحلة الأولى: أوضح الناقد فيها أن الاستعمار الفرنسي قد عمّق آثار التخلف الذي كان متسلّطاً على الحياة الثقافية، وأوجد صراعاً حضارياً معقداً وعميقاً وغير متكافئ، دفع بالأمير عبد القادر إلى مواجهته ومحاولة التخفيف من وطأته الخانقة، لكن الظروف المحلية والخارجية حالت دون تحقيق طموحات الأمير عبد القادر الحضارية. فهذا التوقف أعقبه ركوداً سياسياً أنتج عجزاً واضحاً في الثقافة والأدب، لا ريب أن المقاومة في تلك

المرحلة تجسدت في صور متعددة، تراوحت بين الكفاح المسلح والتعبير الأدبي بالشعر، وبين التثبيت بالدين والانطواء أحياناً كوسيلة للصمود. وقد تفاعلت هذه العناصر جميعها لتعبّر عن روح العصر وقيمه السياسية والفكرية والدينية إبان مقاومة الغزو الاستعماري الفرنسي. وكان للدين دور محوري في الحياة السياسية والأدبية، إذ شكّل الدافع الأساسي للحركة الوطنية ومصدر إلهامها. وربما أسهمت النزعات العنصرية ذات الطابع الديني التي رافقت الغزو الثقافي للجزائر في تعميق هذه النزعة الروحية لدى الشاعر، فغدت رؤيته للحياة وقضاياها المعاصرة منطلقاً من الوجدان الديني ومستندة إليه⁹، مما زاد الناس عزوفاً عن الثقافة والتعليم، مع غياب شبه تام للمراكز والنوادي والجمعيات والصحافة الوطنية والمؤسسات التعليمية، والانزواء في الزاوية.

في هذه المرحلة ازدادت سياسة الاستعمار خبثاً ومكراً، وقد تجسدت في سؤق المهاجرين الفرنسيين والأجانب، والنجيء بهم ليقطنوا الأراضي الجزائرية ويستولوا عليها بعد ما اغتصبت من الأهالي ظلماً وزوراً؛ وفي التدمير المنظم لمختلف التجمعات السكنية (القرى، الدوار، الدشرة، القرية) والقتل الجماعي الذي لا يقره شرع ولا عقل ولا قانون؛ والتعامل مع الجزائريين على أساس أن أرضهم وما فيها تابعة لفرنسا في كافة الميادين.

المرحلة الثانية: كشف فيها الدارس أن مقاومة الشيخ المقراني¹⁰ آخر مقاومة شملت كافة الطبقات وطال أمدّها إلى فترة متأخرة، وكان لسقوطها نتائج سلبية وخيمة على الأدب والثقافة، وعلى المجتمع سياسياً واقتصادياً؛ وكان لالتحاق الشيخ الحدّاد¹¹ بها مع مريديه الأثر الديني البالغ في نفوس الجزائريين وفي عقول ساسة الاستعمار المدنيين والعسكريين.

وقد ساعد على توجّه الجزائريين إلى الدين: ازدياد حدّة المسخ والتشويه الذي تعرض له الدين الإسلامي من قبل تلك الروح الصليبية التي اقترنت بالغزو الفرنسي، ومصادرة أملاك الأوقاف والمؤسسات الدينية، والتعدي على مقدّسات الدين ورموزه، ومراقبة الطرق الدينية مالياً وروحياً وثقافياً وإخضاعها لبرنامج الاستيطاني الاستتصالي، ((وكان لهذه الملابس كلها أثرها في الاتجاه إلى الدين، سواء ما يتصل بالمذاهب النبوية أو التصوف الخالص، وانعكس في روحه ولغته أيضاً، وقد كان للتعليم أثره في مفهوم الثقافة وفي صياغة الشعر، كما كان للغة أثرها في أساليب الشعراء وطرق البيان))¹²، وقد تجلّى هذا في التعليم الذي خطّط له المستعمر الفرنسي لخدمة مصالحه الاستراتيجية الكبرى، وأهدافه الآنية الصغرى، وكان حظ اللغة العربية والأدب والعلم الشرعي فيه قليل جداً. والتعليم في الزوايا الذي كانت تحكمه طرق تقليدية خالصة عماده علوم اللغة العربية وبعض العلوم الشرعية، وكان حظّ الشعر فيه قليل إلا ما كان متعلقاً بالمتون الشعرية التعليمية والشواهد الشعرية والنحوية والبلاغية والعروضية والمعلقات الجاهلية، والتعليم الشعبي ممثلاً في الكتاتيب والحلقات القليلة التي كانت تعقد بين الفينة والأخرى في بعض المساجد أو المصليات أو البيوت على حين غفلة من عيون الاستعمار والموالين له. لكن ومع السلبات المسجلة في التعليم بالزوايا والكتاتيب والحلقات إلا أن كل ذلك في مجموعه العام قد حافظ على مستوى معين من الحياة للغة العربية وما تعلق بها من علم اللغة والأدب والعلوم الشرعية. وما كان لتعليم وفق ما كان سائداً في ذلك الوقت، ولثقافة أحاطت بها أسوء الظروف السياسية والاجتماعية أن تنتج فناً متطوراً أو أدباً متقدماً، بل

أسهمت في إضعافه وسكونه، ((أما الشعر فإنه بالقياس للظروف التي عاشتها الثقافة العربية قد راج إلى حدّ ما وانتشر قائلوه بين الزوايا والطرق الصوفية، وإن كان انحصر في الناحية الدينية))¹³، قلما يتعدّها إلى نواحي الحياة الأخرى، كما أنه لم يتجاوزها إلى مواضيع ترتبط بالذات أو الوجدان، أو تقاطع مع الطبيعة وآفاق النفس والحياة .

المرحلة الثالثة: تختلف هذه المرحلة عن السابقتين بظهور ملامح في العديد من مناحي الحياة تعدّ بالحركة والارتقاء والطموح لما هو أفضل، فمن الناحية السياسية كانت تبزغ من حين لآخر العديد من الانتفاضات التي أسهمت إسهاما فعّالا إلى جانب عوامل أخرى (مثل احتفال فرنسا بالذكرى المئوية على احتلال الجزائر، والحرب العالمية الأولى وما نجم عنها من نتائج، احتلال إيطاليا لليبيا، ثورة عبد الكريم الخطابي واحتلال المغرب، ثورة الشريف حسين بمكة على الأتراك، ظهور حزب الشباب الجزائري، والنخبة، وحزب نجم شمال إفريقيا) في تبلور الوعي العميق بالذات والوطن والثوابت من جهة، وبالذات المستعمرة وخططها الاستثنائية والاستيطانية .

في خضم هذه الأحداث بدأت تلوح في الأفق التباشير الأولى للفكرة الإصلاحية والنهضة في أواخر القرن التاسع عشر، إلى أن وصلت إلى أوجها سنة 1931م بفضل ما توافر لها من الطباعة والصحافة والجمعيات والنوادي، والرجال الذين شغلهم الإصلاح والسياسة والثقافة والأدب (مقالة وقصة ونقدا وشعرا)، وكان لهم ((الفضل في نهضة الشعر والأدب على وجه العموم، حيث تعدّدت أغراضه من وطنية وإصلاحية واجتماعية وغيرها، كما تنوعت أساليبه وتحدّد مفهومه، ولم يصبح محصورا في نطاق ضيق أو يدعو إلى غرض خاص، بل ارتبط بالمجتمع وقضاياها، وبإنسان العربي الجزائري وعبر عن أشواقه ومطامحه))¹⁴، لذلك اصطبغ الشعر بالفكر الإصلاحي الذي استقى كافة مبادئه وآلياته وأهدافه من الدين الإسلامي، وكان جلّ الشعراء في هذا الحقل الديني الوطني إما صحفيين، أو معلمين، أو أئمة وعظّاء ومرشدين، ولذا الاعتبار أدرج الناقد عبد الله خليفة ركيبي الشعر الإصلاحي ضمن الشعر الديني، بعدما تطرّق إلى الشعر الديني الصوفي .

4. التوثيق وأبعاده التاريخية :

هو مجموعة الدوريات الجزائرية والعربية التي قدّمها الناقد عبد الله خليفة ركيبي بين يدي القارئ بوصفها مصادر ثانية، اعتمدها في دراسته، وهي:

- أ . الدوريات العربية الجزائرية: الإصلاح 1929 - الإقدام 1920 و 1921 و 1922 و 1924 - آمال 1969 - البرق 1927 - البريد 1913 - البلاغ 1921 و 1927 و 1928 و 1929 و 1931 و 1932 - التقدّم 1923 - مجلة الجزائر 1908 - الحق 1894 - ذو الفقار 1913 و 1914 - الشهاب 1925 و 1926 و 1927 و 1932 - صدى الصحراء 1925 و 1926 - الصديق 1920 و 1921 - الفاروق 1913 و 1915 و 1920 - مجلة كلية الآداب، جامعة الجزائر 1964 - كوكب إفريقيا 1909 و 1910 و 1911 و 1912 و 1913 و 1914 - المجاهد 1966 - المرصاد 1932 - المعرفة 1963 - المغرب 1903 - المنتخب 1882

و1983 - المنتخب في مصالح العرب 1902. المنتقد 1925. النجاح 1923 و1924 و1925 و1926 و1927 و1928 و1929 و1930 - وادي ميزاب 1926 و1927 و1928 -

لا شك أن الغرض الظاهر من وراء استحضار هذه المجموعة من الدوريات الجزائرية هو التأكيد على أن المعلومات التاريخية والثقافية والسياسية والأدبية، والنصوص الشعرية المختلفة التي وظّفها في دراسته معلومات ونصوص استقاها من مصادرها الأولى لا من مراجع تالية لها. وفي ذلك تنبيه على أهمية الأخذ من المصادر والتعويل عليها في بناء الأفكار والآراء والمواقف. لأن القارئ الحاذق والمتخصّص سيقراً البحث بكل راحة واطمئنان، لأنه مبني على أخبار ثابتة، ومعطيات تاريخية واقعة. هذا غرض علمي ومنهجي توثيقي.

وعطفاً على ما سبق نفهم من هذا الإحضار والحضور المكثف للجرائد والمجلات أن الصحف الجزائرية مصدر من أهم المصادر التي ينبغي الاستناد عليها في التاريخ الجزائري العام والثقافي، لأن المراجع في بعض الأحيان وهي تستقي معلوماتها من الصحافة ومصادر أخرى قد لا تقدم المعلومة بأمانة دون زيادة أو نقصان، وقد تستورد الآثار من مراجع لم تُعد في كتاباتها للمصادر الأولى المتعلقة بالمواضيع والقضايا التي هي بصدد البحث فيها. فالبحث يكون موضوعياً علمياً كلما كان التوثيق واضحاً وسديداً، وكلما غاب كان العمل مشوباً بالذاتية والانطباعية، التي تجعل المواقف والآراء فيه مبنية على فراغ، خالية من كل قيمة علمية قد يرجع إليها الباحثون والمهتمون، وقد تبنى على إثرها استنتاجات وحقائق مؤسفة.

فضلاً عن القيمة البحثية التوثيقية المترتبة عن ذلك، فإن هناك قيمة ثانية غير مباشرة يقدّمها الناقد من وراء تقديمه لهذه الدوريات بتواريخها، وأنواع النصوص المتوفرة فيها، والتسجيل الأمين فيها لمختلف ما كان يصدر من الاستعمار الفرنسي من جرائم وقرارات تعسفية في حق الشعب الجزائري ومقوماته وثوابته، هذه القيمة يمكن أن نطلق عليها الإحالة التاريخية. فالكاتب الناقد عبد الله خليفة ركيبي يحيلنا إلى:

— تاريخ الصحافة الجزائرية منذ 1909م (كوكب إفريقيا)، وللتذكير فإن التاريخ الأولي للصحافة الجزائرية يعود إلى 15 سبتمبر 1847م (صحيفة المبشر بالجزائر)، و(المنتخب بقسنطينة) سنة 1882م، و(المبصر بقسنطينة) سنة 1883م، و(الحق بعنابة) سنة 1893م، و(النصيح بالجزائر) سنة 1899م، و(الجزائري بالجزائر) سنة 1900م،...¹⁵

— الصحف التي تأسست قبل الاستقلال احتضنت بكثرة الشعر الديني بمختلف أطيافه، على الرغم من أنها لم تكن ذات صبغة ثقافية وأدبية أو شعرية خالصة، فكل الصحف التي اعتمد عليها الباحث في كتابه "الشعر الديني الجزائري الحديث" تنتمي لفترة ما قبل الاستقلال، ما عدا بعض المجلات مثل: آمال، مجلة كلية الآداب لجامعة الجزائر، المجاهد، المعرفة، التي برزت بعد الاستقلال، وهي دوريات نشأت في ظل الهيئات الحكومية الجزائرية.

— الدوريات التابعة لفترة ما قبل الاستقلال كانت مبادرات شخصية من قبل بعض الأفراد الجزائريين من حيث التمثيل الإداري الرسمي، والتمويل الخاص بأعباء الطبع والنشر.

— الصراع المرير الذي كابده أصحاب الصحف والكتاب الذين كانوا يكتبون فيها، والتضحيات الكبرى التي بذلها هؤلاء، ففي مقابل الإصرار والثبات والصدق والعمق الذي كان يتصف به أولئك الوطنيين المخلصين كان الاستعمار الفرنسي الاستعمالي يوقف أغلب الصحف الوطنية ويمنعها من كل وسيلة تمكنها من العودة، ويسجن وينفي ويقيم الإقامة الجبرية للعديد من أصحاب الصحف (مثل عمر راسم، عمر بن قدور، الطيب العقبي، السعيد الزاهري، الأمير خالد، عبد الحميد بن باديس...) ¹⁶ وكتاب المقالات والشعراء (مثل البشير الإبراهيمي، محمد العيد آل خليفة، ومفدي زكرياء، رضا حوحو، العربي التبسي، الربيع بوشامة، أحمد سحنون، الأمين العمودي...)، فكل جريدة وطنية إلا ولها أكثر من قصة شهادة وجهاد وسجن ونفي وتشريد مع الاستعمار وأتباعه .

— دورها في المحافظة على الدين الإسلامي واللغة العربية والتاريخ الوطني والقومي والإسلامي من جهة، وفي الدفاع المستميت الشامل ضدّ سياسات الاستعمار الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت تهدف إلى تعرية المجتمع الجزائري من كل مزية إنسانية، وإبقائه عبدا مملوكا تابعا لسلطة فرنسا الصليبية.

— العودة إليها قراءة وبخنا واستثمارا بخاصة في مجالات الدين والفكر والثقافة والأدب شعره ونثره، فهي فضلا على إحالتها لنا إلى تاريخنا وما حاق به من ظروف استثنائية قاتلة، فإنها تقدم لمختلف الباحثين والدارسين في شتى الحقول زادا لا ينضب، ومددا لا ينفد .

إلى جانب الدوريات الجزائرية قدم لنا عبد الله ركيبي عناوين دوريات عربية من تونس ومصر والسعودية، هي "حولية الثقافة العربية" (مصر) 1950 و 1951، و"المنهل" (السعودية) 1933 و 1937 و 1939 و"نشرة جمعية طلبة شمال إفريقيا" بفرنسا (تونس) 1931، كانت تحتفي بالكاتب الجزائري مفكرا كان، أو أدبيا شاعرا وناثرا، تنشر له وتشجّعه وتحفّزه، وتقّدمه سفيرا للجزائر العربية المسلمة التي لم ينل منها الاستعمار الفرنسي في دينها ولا في لغتها ولا في طموحها المشروع نحو الحرية والاستقلال. وبدل هذا كذلك على القيمة العلمية واللغوية والفنية التي كان يحوز عليها الفكر الجزائري آنذاك على الرغم من الغياب المطلق للبنية التحتية التعليمية والثقافية قياسا بالنسبة للبلدان الشقيقة الأخرى مثل تونس والمغرب، ومصر وسورية وبلدان أخرى .

5 . المخطوطات وقيمتها الأدبية والتاريخية:

الناقد عبد الله خليفة ركيبي لم يكتف بما هو مطبوع، أو بما هو منشور في الصحافة بل راح يسافر في المجهول، وينتقب في الأغوار، فإذا به يتمكن من العثور على وثائق شعرية مخطوطة منها ما هو ديوان، ومنها ما هو قصائد مفردة. لم يخبرنا الناقد كيف عثر عليها، ولا الأماكن التي أخذها منها، ولا الطرق التي تعامل بها مع المخطوطات. وهذه المصادر المخطوطة التي اعتمدها هي:

1- الدواوين: ديوان ابن يوسف . ديوان أبو عبد الله البوعبدلي . ديوان بشير الراحي (الديوان المستظرف الذي أخذ من كل موضوع بطرف). . ديوان أحمد بن مصطفى العليوي . ديوان الطاهر بن عزوز . ديوان عاشور بن محمد الخنقي . ديوان عبد الرحمن الديسي (منة الحنان المنان) . ديوان محمد بن سليمان . ديوان معمر بن صالح .

2 - القصائد: - ابن القيطون (مجموعة قصائد مخطوطة). أبو العباس بن ثابت الحسني (التفكر والاعتبار في فضل الصلاة والسلام على النبي المختار)، وهي مطولة تعود إلى القرن الثاني عشر الهجري، من مكتبة الشيخ المجاوب بالبر واقية بالجزائر. الأحسن بن بركات (هاي بن خيرة قصيدة مطولة). أحمد بن محمد المكي (مجموعة قصائد). حقي بن السايح (قصيدة واحدة). عمر بن محمد المانجلاتي (قصيدة مطولة) من مكتبة الشيخ المجاوي بالبرواقية بالجزائر. محمد بن منصور العقبي (قصيدة في الرثاء قالها سنة 1921م). محمد حفيد المهدي الجزائري (قصيدة تعود إلى القرن الثاني عشر الهجري)، وهي مخطوط يحمل رقم 5113 يوجد بمكتبة باريس الوطنية .

يريد الناقد أن يؤكد من بعد هذا الرجوع المضني إلى هذه المخطوطات على أن الوصول إلى تصور عام للبحث في موضوع ما لا يُكتفى فيه بالرجوع إلى المصادر التاريخية أو الأدبية الكبرى، أو بالاعتماد على الدوريات ولو كانت جزائية أو عربية، وإنما ينبغي التنقيب الجدي عن مصادر أخرى ولتكن المخطوطات بغض النظر عن صغرها أو كبرها. فالمخطوطات تثري الفضاء الذي يبحث فيه الناقد، وتزيد من مساحة الوصف والتحليل، وتعطي مصداقية علمية للنتائج المتوصل إليها. كما أنها تغرس في ذهنية القارئ أن تاريخ علم أو معرفة أو إبداع لا يكمن في المتداول من المطبوع ولا في المشهور من الروايات الشفهية، وإنما كذلك المظهور المخبوء في المدارس والمعاهد والمساجد القديمة والزوايا والمكتبات، وفي خزانات الأرشيف الحكومية بفرنسا والمغرب وتونس وتركيا. من هنا كان للمخطوطات على الدوام قيمتها التاريخية تردنا وتحيلنا إلى فترات نشيطة سخية من فترات التاريخ الثقافي والسياسي للجزائر.

وهذا السلوك العلمي الذي نهجه عبد الله خليفة ركيبي في كتابه "الشعر الجزائري الحديث" قد تبناه الباحث بقسط أكبر وواسع من السابق، وذلك في مؤلفه (الشاعر جلواح من التمرد إلى الانتحار)، الذي ألفه بفضل ما عثر عليه من مخطوطات، إذ يقرّ الباحث أن الفضل في ذلك يعود ((للصدفة وحدها أن عثرت على ديوانه المخطوط، وإن كان هذا الفضل يعود في الواقع إلى الأخ الشاعر "عبد العالي رزاق" الذي أتاح لي الاطلاع على الديوان المخطوط القيم الذي تركه الشاعر، ولهذا قصته...))¹⁷ وبعد قراءته للمخطوط الشعري ألفى الباحث خليفة ركيبي شعرا متميزا في كافة المستويات عن الشعراء المختلفين من الذين عاشوا في عصره، ألفى في شعر مبارك جلواح تجربة شعرية جديدة في اللغة والأساليب، وفي الخيال والتصوير، وفي الإيقاع بمفهومه الواسع، في الطبيعة ممزوجة بالمشاعر والوجدان، وفي وانتفاضة عارمة على الأوضاع؛ ((وقد دفعني هذا كله إلى أن أكرس لهذا الشاعر دراسة كاملة لحياته وشعره الذي يمثل قصة الرومانسية في شعرنا الحديث والمعاصر. ولعل ذلك يدفع غيري إلى أن يتتبع هذا التيار أو هذا الاتجاه منذ نشأته وظهوره حتى قيام الثورة))¹⁸، والمراجع للكتاب المنجز سيجد فعلا أن

عبد الله ركيبي قد خدم الشعر الجزائري خدمة كبيرة، وقدّم للباحثين حقولا واسعة للدراسة والنقد بما حققه من أشعار الديوان لمبارك جلواح، وأمدّ المهتمين بالشعر الرومانسي في المشرق والمغرب العربيين بروائع شعرية جزائرية ثرية من شأنها ردّ الاعتبار للشعر العربي الجزائري الحديث، والدفع بالعديد من مؤرخي الشعر الجزائري الحديث لإضافة ما يوجد من شعر كثير لمبارك جلواح ذي الأصل المخطوط لما قدّمه في الشعر الوجداني الجزائري.

وقد اقتفى آثار عبد الله خليفة ركيبي أربعة باحثين - في حدود معلوماتنا - هم أبو القاسم سعد الله، عمر بن قينة، ومحمد ناصر، ومحمد بن سميّة. الأول بكتابه "القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني"، والثاني بكتاب "الديسي حياته وآثاره وأدبه"، والثالث بكتاب "العيديات المجهولة، تكملة ديوان محمد العيد آل خليفة"، والرابع بمؤلفه "ديوان أبي اليقظان" من جزأين. وهؤلاء جميعا اعتمدوا بالدرجة الأولى على المخطوطات.

هذه المقاربة التاريخية أبانت للقارئ أنّ النصّ النقدي الجزائري الحديث ممثّلا فيما كتبه عبد الله خليفة ركيبي غير منغلق على نفسه في النقد والأدب بل هو نصّ مفتوح على صفحات الحياة الواسعة التاريخية بما فيها العسكرية والسياسية والثقافية والاجتماعية. وأنّ الإبداع الأدبي الجزائري الحديث أدب مرتبط بالواقع الفسيح ومتّصل بالحياة بجغرافيتها الشاسعة. إنّه يحى بروح تتقلّب بيت التأثير والتأثير، بين العطاء والأخذ، بين الإنفعال والفعل. وفي هذا ردّ علمي موضوعي على الذين يدرسون الأدب بمختلف أجناسه مفصولا عن أسباب حياته يلغون تأثير المجتمع عنه، والكاتب والتاريخ.

6. الهوامش:

- 1 - عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: 1981م.
- 2 - ينظر، المرجع نفسه، ص ص 6-7.
- 3 - ينظر، المرجع نفسه ص 7.
- 4 - ينظر: محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت: 2006م، ص 25.
- 5 - عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ص 7.
- 6 - ينظر، المرجع نفسه، ص 7.
- 7 - ينظر، أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830م. 1954م)، ج 4، ط6، دار البصائر، الجزائر، 2009م، ص 338.
- 8 - ينظر، عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ص ص 7-8.
- 9 - ينظر، المرجع نفسه، ص ص 13-14.
- 10 - ينظر، عثمان سعدي، الجزائر في التاريخ، ط1، دار الأمة، الجزائر: 2011م، ص 584.
- 11 - المرجع نفسه، ص 589.
- 12 - عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ص 28.

- ¹³ - المرجع نفسه، ص 32 .
- ¹⁴ - المرجع نفسه، ص 42 .
- ¹⁵ - ينظر، محمد ناصر، الصحافة العربية الجزائرية من 1847م إلى 1954 م، دار الغرب الإسلامي، بيروت: 2007م، ص 11 و 27 .
- ¹⁶ - ينظر، زهير إحدادن، سلسلة أعلام الصحافة الجزائرية، دار إحدادن للنشر والتوزيع، الجزائر: 2002 م .
- ¹⁷ - عبد الله ركيبي، الشاعر جلواح من التمرد إلى الانتحار، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر: 1986م، ص 7.
- ¹⁸ - المرجع نفسه، ص 8 .

7. قائمة المراجع:

1. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830 م . 1954 م)، ج 4، ط 6، (الجزائر: دار البصائر، 2009م).
2. زهير إحدادن، سلسلة أعلام الصحافة الجزائرية، (الجزائر: دار إحدادن للنشر والتوزيع، 2002 م).
3. عبد الله ركيبي، الشاعر جلواح من التمرد إلى الانتحار، (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986م).
4. عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ط 1، (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981م).
5. عثمان سعدي، الجزائر في التاريخ، ط 1، (الجزائر: دار الأمة، 2011م).
6. محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، ط 2، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2006م).
7. محمد ناصر، الصحافة العربية الجزائرية من 1847م إلى 1954 م، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2007م).